أى : فرح المتعة الذى لا ينظر إلى مَغبَّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً : إنه فن جميل وفن راقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقى أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث فى الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَابْتَغِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] أى : اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه فى حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

وفى الحديث الشريف لما سأل رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة

عن الشاة التى أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيتْ إلا كتفها »[1] .

ويقول ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[2] .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام علـى - رضى الله عنه - جاءه رجل يسـأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخـرة ؟ فقال : جـواب هذا السؤال ليس عندى ، بل عندك أنت ، وأنت الـحكم فى هذه المسـألة . فـإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعـودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطى ، فـأنت من أهل الدنيـا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسـألك ويأخذ منك ، فـأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعـمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فـيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنـا - عز وجل - يوصـينا بأن نبتـغى الآخرة ، فـهذا لا يعنى أن نتـرك الدنيـا : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليـلاً على الانغماس فى الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] نفهم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشىء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغى علىَّ أنْ أنساها فذكَّرنى الله بها .

ولأهل المعرفة فى هذه المسألة ملْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشىء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ فى نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] يعنى : خُذْ منها القَدْر الذى يعينك على أمر الآخرة . لذلك قالوا عن الدنيا : هى أهم من أن تُنْسى - لأنها الوسيلة إلى الآخرة - وأتفه من أن تكون غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء فى الأثر « تخلقوا بأخلاق الله ».

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٠١) : « قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] اختلف فيه .

فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملاً صالحاً فى دنياك ، إذ الآخرة إنما يُعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة .

- وقال الحسن وقتادة : معناه لا تُضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، قاله ابن عطية » .

لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور]

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطى دون مخافة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب - وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة - حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١)﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدى ، مسئول منى أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندى - حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره - فمَنْ إذن يقرضنى لأسُدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ .. (١١)﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك وسَعْيك .. كما لو أراد والد أنْ يُجرى لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضونى من أموالكم لأجرى الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

وفى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة - رضوان الله عليها - فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به » ؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ » ؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

وقال في موضع آخر : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وفي الحديث الشريف : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة - هذا في نظرهم - لأنهم لا يملكون الملكة العربية في استقبال البيان القرآني . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف - ظاهراً - في قوله تعالى : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] وقول النبي ﷺ : « والقرض بثمانية عشر » .

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها الدرهم الذي تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص] والفساد يأتي من الخروج عن منهج الله ،

(١) عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/١٢٦) وعزاه للطبراني في المعجم الكبير وقال : « فيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف » .

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بي مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض ثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما للقرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/٣٣٢) .

فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون فى المادة يكون فى المنهج ، وفى المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه خلق كل شىء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنوية ـ أَوْلَى من قوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبنى حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهى ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أشِراً[1] مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

ووجدوه قد نسى نصيبه من الدنيا فلم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق فى الخير ، فقالوا له : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] يعنى : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك .. وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

---

(١) الأشَر : البطر . وقيل : هو أشد البطر . والبطر : الطغيان فى النعمة ، فهو بَطِر : لم يشكرها . [لسان العرب ـ مادتا : أشر ـ بطر] .

ثم يقـول قارون رداً على هذه المـسائل الخـمس التى توجَّه بـها قومه إليه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾

لكن مـا وجـه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] على المطلوبات الخمسة التـى طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم بهذه الأمـور ؛ لأن الذى أعطانى المال علم أننى أهلٌ له ، وأننى أستحقه ؛ لذلك ائتمننى عليه ، ولستُ فى حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] يعنى : بمجـهودى ومزاولة الأعـمال التى تُغل علىَّ هذا المـال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصـوت فى قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .

فعجـيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] ولا يعلم أن الله قـد أهلـك من قـبله قـروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا .. (٧٨) ﴾ [القصص] فكيف فاتتْـه هذه المسـألة مع علْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ .. (٧٨) ﴾ [القصص] أى : من ضمن مـا علم ﴿ مِنَ الْقُـرُونِ .. (٧٨) ﴾ [القصص] أناس كـانوا أكـثر منـه مالاً ، وقـد

أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة ﴿ جَمْعًا .. (٧٨) ﴾ [القصص] يجوز أن تكون مصدراً يعني : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أي : له عُصْبة .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .

وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب في أيِّ وقت ، إذن : لن نسألهم ، ولن نُجري معهم تحقيقاً كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .

وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرساً بَطِراً لم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحاً باغياً مفسداً ، ويحكي عنه القرآن :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنياً وجيهاً ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد ، كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج في زينته وفي موكب عظيم ، وفي أبهة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ .. (٧٩) ﴾ [القصص]

وللعلماء كلام كثير[1] فى هذه الزينة التى خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس .. إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص] وقد خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٣١)﴾ [طه]

والمعنى : لا تنظر إلى ما فى يد غيرك ، واحترم قدر الله فى خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحتَ بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْت نفعها ؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره ؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه . وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما ذنبه هو ؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

---

(١) قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر . [أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم] ـ قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . [أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم] . أورد السيوطى هذه الآثار وغيرها فى [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٤١] .

بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٣٢) ﴾ [النساء]

لأن لكل منكم مهمة ودوراً فى الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التى يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فَضْله على خَلْقه ؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوى مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عنى فى خصلة ، وأزيد عنك فى أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم ... إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ فى عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، فى حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار ؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً فى شىء فلا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشىء بسيط : حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد اليسرى تجد أن اليد اليمنى ـ لأنها مرنة سهلة الحركة ـ تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التى كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها .

وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوَّق في شيء أو أحسن في صُنْعه فاحمد الله ؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد ؛ لأنك ستنتفع به في يوم من الأيام .

لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهروا بزينة قارون ؟ قالوا : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص] يعني: كما نقول نحن (حظه بمب) ؛ لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأيٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور ؛ لذلك ردُّوا عليهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

فما كان الحق - تبارك وتعالى - ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكِّكون الناس في قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخلي الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :

إنَّ الذي جَعَلَ الحقيقةَ علْقَماً   لم يخْل من أهْل الحقيقة جيلا

وما دام أن الله تعالى قال في الجماعة الأولى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَـٰوٰةَ ٱلدُّنْيَا .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص] فهم لا يرونَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال في الأخرى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص] فهذا يعني : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم

علم ينفعهم ؛ لذلك وقعوا فى هذا المأزق الذى نجا منه أهل العلم ، حينما أجروْا مقارنة بين الطمع فى الدنيا والطمع فى الآخرة .

كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة ؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ .. (٧٩) ﴾ [القصص]

أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : ﴿ وَيْلَكُمْ .. (٨٠) ﴾ [القصص] أى : الويل لكم بسبب هذا التفكير السطحى ، وتمنِّى ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم ، وباعتراضكم على أقدار الله فى خَلْقه .

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا ؛ لذلك قال الله عنهم فى موضع آخر : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

يعنى : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجِّهونهم الوجهة الصحيحة : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٨٠) ﴾ [القصص] أى : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولم ترضَوْها ؟

ومعنى : ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص] أى : يُلقَّى الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبلَ على عمل الآخرة ، ويُفضلها

عن الدنيا ، أى : يُلقَّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفَّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت]

والصبر : احتمال ما يؤذى فى الظاهر ، لكنه يُنعِّم فى الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاصٍ ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحل ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس ؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة] فهناك دَواعٍ شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفَّها على نفسك ، بل وقرَّة عَيْن لك .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله لمؤذنه بلال : « أرحنا بها يا بلال »[1] لا أرحنا منها تلك المقالة التى يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً ﷺ : « وجُعلَت قرة عينى فى الصلاة »[2] وخصَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى . وتمامه : « حبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجُعلت قرة عينى فى الصلاة » .

الصلاة بالذات من بين سائر العبادات ؛ لأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات ، فهى ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة فى العام ، أو مرة واحدة فى العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثانى : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنْسَ أنه أول صبر تصادفه فى حياتك أنْ تصبر على نفسك ؛ لذلك يقول الشاعر(١) :

إذَا رُمْتَ أنْ تَسْتقرِضَ المالَ مُنفقاً ... علَى شَهَوات النفْسِ فى زَمَن العُسْرِ
فَسَل نفسكَ الإنفاقَ من كَنْز صَبْرِها ... عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعةِ اليُسْرْ
فإنْ فعلتْ كنتَ الغنىَّ وإنْ ... أبتْ فكل مَنُوع بعدها واسِع العُذْر

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأوْلَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ لم تسعْكَ نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التى لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية بحكمة مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول فى الحديث الشريف : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »(٢) .

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

(٢) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى الحلية (٢٣٧/٤) وابن الجوزى بإسناده فى « العلل المتناهية » (٥١٩/٢) وضعَّفه . وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٤٥٧/١) .

إذن : حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، كالطالب الذى يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل فى الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شيء من الغرور ، وعوَّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ منَ الله للفتَى ... فَأوّلُ مَا يَجْنى عليْه اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذتَ بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدى عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حكماً فى كل منهما ، ففى النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ولده :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ويقول فيما لك فيه غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣) ﴾ [الشورى] فما دام قد ذكر المغفرة ودعاك إليها ، فلا بُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغى أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجنى إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر فى هذه الحالة أشدّ ويحتاج إلى عزيمة قوية .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ولم يقل كما فى الأولى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا - تبارك وتعالى - كيف نعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعنى أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه فى نفسك ، فإن ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرج الغيظ والغلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإن ارتقيتَ إلى المرتبة الأعلى أحسنتَ ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهى قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها ؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأُولاَها فلا شىء عليك ؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقى فى طاعة ربك ، فنعْم الرجل أنت ، ويكفيك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ويكفيك أن المسىء بإساءته إليك جعل الله فى جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أُحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتَدَى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدى ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - إن اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظلمَه .

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذى يستحقه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول (يا أرض انشقى وابلعينى) ، والخسف كان به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] أى : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبَة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إن حلَّ ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسفت به الأرض ؟!

وهنا ينبغى أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتنوا بماله وزينته ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٢) ﴾

لقد كانوا بالأمس يقولون ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَٰرُونُ .. (٧٩) ﴾ [القصص] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين - اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. (٨٢) ﴾ [القصص]

كلمة (وَىْ) اسم فعل مثل : أُفٍّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهى تنديد وتَخْطِيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَىْ) للتعجب . فقولهم (وى) ندماً على ما كان منهم من تمنى النعمة التى تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن ويُخطِّئون أنفسهم ؛ لأن الله تعالى فى رزقه حكمة وقدراً .

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. (٨٢) ﴾ [القصص] أى : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليلَ كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله بسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أَخْذ عزيز مقتدر .

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : ﴿ كَلاَّ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفجر] يعنى : أنتما خاطئان ، فلا سعةَ الرزق دليلُ كرامة ، ولا تضييقه دليلُ إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطى بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه ؟

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر]

إذن : فأيُّ كرامة فى مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح فى يد الذى لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص] لأنهم بالأمس تمنَّوْا مكانه ، أما الآن فيعترفون بأن الله مَنَّ عليهم حين نجاهم من هذا المصير ، ثم يقولون ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل فى هذه المسألة :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بنى جنسه ، ولا على بيئته إلا بشىء ذاتى فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته ؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو على غيرك بشيء موهوب لك ، إنْ أردتَ فبشيء ذاتي فيك ، وليس فيك شيء ذاتي ، فلست أفضلَ من أحد حتى تعلو عليه ، كما أن الدنيا أغيار ، وربما انتقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك ؟

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السيرك ، ثم أمسك نفسك فى هذا العلو ، وطبعاً لن تستطيع ، لماذا ؟ لأنه لا ذاتية لك فى العُلو .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تعلو ؛ لأنك بعلوِّك تُحْفظُ الآخرين ؛ فإنْ حصل لك العكس شمتوا فيك ، وأيضاً لأن الإنسان لا يعلو فى بيئة ولا فى مكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونك فأنت لم تتنبه إلى أسرار فَضْل الله فى خَلْقه .

ولو تأملتَ لوجدتَ فى كل منهم خصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ونحن جميعاً عنده تعالى سواء ، وقد وزَّع المواهب بيننا جميعاً بالتساوى ، وبالتالى لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالى إذن ؟ ولِمَ الكبر ؟

وأيضاً الذى يتعالى لا يتعالى إلا فى غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذى يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحى أن يتكبر على خَلْقه .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين ؟ وكيف نتواضع لهم ؟

فلما دخل عليه الصحابى الجليل عدى بن حاتم[1] قام عن كرامة مجلسه له ، يعنى : إن كانْ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله ﷺ على المساواة فى المجلس ؛ لذلك قال عدى بن حاتم لرسول الله ﷺ : أشهد أنك لا تريد عُلُواً فى الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً فى مساجدنا ، وهى بيوت الله وأَوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلّى ليصلى عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز ؟

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلَّى جانباً ، ويصلى كما يصلى بقية الناس ، وأظن أن الذى يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغى علواً فى الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سوىَّ الحركة فى أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضِّغن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيشٍ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص] أى : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة فى النعيم المقيم الدائم للمتقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) هو : ابن حاتم الطائى المشهور بالكرم . أسلم عدى فى سنة تسع وقيل سنة عشر وكان نصرانياً قبل ذلك ، وثبت على إسلامه عند ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول ﷺ ، شهد فتوح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع على ومات بعد الستين هجرية [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٥٤٦٧)] .

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وتُطلق ويُراد بها الأحسن في الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فهى بمعنى التفضيل ، أى : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ   وابْنُ الأَخْيَرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل . وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. (٨٤) ﴾ [القصص] أى : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسن ، والمراد أن الحسنةَ بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فقوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤) ﴾ [القصص] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصى ، ومعنى ﴿ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤) ﴾ [القصص] أى : أتى بها حدثاً لم يَكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها فى الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً فى الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك فى الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء فى نصحهم : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء فى مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهى الشىء الذى يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشىء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشىء ولا يستطيبه ، ويأتى له بالنفع .

فمن إذن الذى يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين فى هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذى خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذى يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون فى تعريف الحسنة : هى ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، فى حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى فى صفة الطعام : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مرىء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. (٨٤)﴾ [القصص] فالحسنة خير ، لكن الثوابَ عليها خيرٌ منها أى : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعى لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : ﴿مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التى تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خَلْقه .

لذلك قال ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾ [القصص] أى : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى سورة (عم) : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ[1] أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا[2] (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)﴾ [النبأ]

---

(١) الكواعب الأتراب : أى فتيات ناضجات متماثلات فى السن . وكعب الثدى : برز ونهد . يُقال للفتاة : كاعب . أى : ذات ثدى بارز . [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٢) الكأس الدهاق : الممتلئة المتتابعة على شاربيها . وقوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)﴾ [النبأ] أى : هى الامتلاء الدائم ، وهذا كناية عن النعيم الدائم . [القاموس القويم ١/٢٣٤] .

فحساباً هنا لا تعنى أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعنى كافيهم فى كل ناحية من نواحى الخير ، ومنه قولنا : حسبى الله يعنى : كافينى .

وفى المقابل يقول سبحانه فى السيئة : ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ] أى : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا ـ عز وجل ـ يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغرى الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفى المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه :

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمَّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه فى أول سورة النور : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. ﴿١﴾﴾ [النور]

يعنى : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعنى ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هى ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة